فى فن التصوير

يقف الانسان أمام صورة من الصور ويلقى عليها نظرة عارضة عاجلة فيصدر فى الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟ أنالت من نفسه ارتياحا؟ أسكن وجدانه إليها؟ ولماذا أعجب بها؟ ولماذا لم يعجب؟ وما هى العاطفة الكامنة التى تصدر هذا الحكم بتلك السهولة لها أو عليها؟ أهو الذوق؟ وما هو الذوق؟ أهو العقل؟ وعلام يستند العقل؟ هذا مانحاول شرحه فى هذا المقال متوخين الايجاز فى تناول موضوع التصوير بصفة عامة لأنه فن واسع الأفق لايحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد.

ليس التصوير إلا لغة للتعبير وأسلوباً من أساليب الوصف والافضاء عن الشعور والعاطفة، فكل مصور درس أصول التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متآلفة، ولكن على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لانجد كل متكلم أديباً ولا شاعراً، فكذلك ليس كل من تناول بريشة الفن وأتقن مزج الألوان فناناً موفقاً، وكذلك على قدر التفاوت بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً.

فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية بعيدة يريد المصور أن يبلغها، ونحن إذ ننظر إلى الصورة يجب أن نبحث أولا عن هذه الغاية - ماذا يريد صانعها أن يقول. فاذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة لغو لا طائل تحته، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا فهى بكماء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة للجهد والوقت بالغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان. وأقل ما نلتمسه فى صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها وشخصية تتسم بها. هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا؟ أو هل فسرت معنى مجهولا؟ أو هل مهدت خطوة فى سبيل غرض سام؟ أو هل ألقيت بصيصاً ولو ضئيلا من النور على ظلام الحياة؟ أوهل أضفت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون؟ اذا التمسنا شيئا من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا صدى له فى نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئا.

المصور العبقرى كالشاعر العبقرى كلاهما كالنبي المعجز غرس الله فى قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح السماوى والنور الالهى وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحى أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه.

والمصور الصادق قطعة من الحياة تهذبت وتثقفت، يرتاد سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق الاحساس مرهفه، ومهجة فياضه الشعور، ووجدان بالغ الدقة منته فى اللطف؛ فهو روح مجرد يطير فى كل أفق، ويحوم فى كل خميلة، ويرد كل غدير، ويعتلى كل فنن، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق، ويلتهمه بعين حديدة، ويحيله أشعة وظلالا ويحمله روحاً بروح تسجله للأبصار فى أسلوب ناطق وخفى، ويحده بأطار من شعوره وفيض إحساسه.

فاذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين. إنسان بالغ النبل نقى الروح زكى النفس عظيم السمو لزم أن يكون أسلوبه الذى يضمنه روحه نبيلا على قدر نبله ساميا على قدر سموه، ولزم أن تكون موضوعاته التى يختارها لأداء فكرته وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض، لزم أن تكون على قدر نبله وسامية على قدر سموه؛ فالفنان الذى يصور البعث أو الوحى أو الصلاة أو الحنان أو الحب أو الأمومة وما يدخل تحت فصل الجمال الروحى أنبل من المصور الذى يصور الحقد والدمامة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع بتصويرها لا للنهى عنها. هذا تدور خواطره على مشاغل

الناس اليومية المادية ، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس فى قلبه إلا بكل جليل الشأن . ويلى هذين من يعنى بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقير كلعب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكما قاطعاً لا نقض فيه ، إذ أن الفنان النبيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويضفى عليه من قدرته وبراعته ، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقير الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن الدائرة التى يدور فيها ، وينتهى حيث يبتدىء ، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحة مثله ، ومثل هذا النقاش يحسب غروره وحيا وطمعه عظمة فى الروح وعلوا فى النفس

وشتان بين الاثنين ! أحدهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهيم أو تسعى إلا وراء الشذى الذكى والعبق النقى والعرف الندى ، ولا يستهويها إلا الزهر المنور والجو المعطر ؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقذار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات والديدان .

والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق ، والزنبور أذى وشرا . تلك رمز التضحية والغيرية ، وهذا عنوان الأنانية والأثرة ؛ تلك متواضعة خجولة تعمل فى رصانة وسكون ، وذلك مدع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والايقاع به أو لتفاديه

فلا تستصغرن من النحلة اندماج لونها وهدوءها ؛ ولا يغرنك من الزنبور بروزه وطنينه .

وكذلك لا يغرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحث عن الغاية المجيدة وعن التعبير الصادق الجميل .

كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة ، وأن تلك دميمة ، ويكادون لا يختلفون فى حكمهم ، فما الذى جمع بينهم على رأى واحد ؟ قد يحتج بان هذه هى أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا احساسهم فلا تطلب تعليلا ولا تحليلا ، وفى الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسنها . ونفسنا تصبو إلى جمالها ، ولكننا نتفق فى النزوع إلى جمالها والصبابة اليها بدافع من الغريزة فالغريزة هى فى الواقع التى تؤلف بين الرجال على الاعجاب بجمال المرأة أو هى على الأصح التى كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل فى المرأة ؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يجل جمالها لذاته مجرداً عن دافع الشهوة ، وبعدت عن خياله تلك الصور التى كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية ، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الخصر وكثيب الرمل . ولم نعد نسمع قول بشار بن برد :

أو عضة فى ذراعهـــا ولها ... فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى ... والباب قد حال دونه الستر

ولم نعد نسمع تلك النواسيات الماجنة وما اليها من دلائل الاحساسات البهيمية ، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغانى الخالدة التى تسمو بأرواحنا ، إذا بنا نسمع العقاد يقول :

أغلى جمالك فى النواظر أنه ... عوض لشين فى النفوس كثير
وأنا له منها المقـــادة أنه ... فى الأرض رمز كمالها المحظور

وقوله : —

ان التعاطف بالأرواح بغيتنا ... وفى القلوب على الأرواح عنوان

وقوله : —

فعش فى جوار الناس شخصاً مجسما
وعش فى فؤادى صورة تتخيل

فالغريزة هى الأصل فى الإعجاب بشىء دون شىء ، ولما تهذبت وارتقت استحالت إلى ما نسميه نبلا أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها .

ولكن هذا الذوق له فصول وأسس ، وله قواعد وقوانين تضبطه وتحده ، فلم يعد جمال الجسم الانسانى صباحة وجه ، وسطوع جبين ، وامتلاء جسم أو نحافته ، أو غير هذه الأوصاف من المعانى المطلقة ، بل وضعت له مقاييس وأطوال — وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه فى حدود مرسومة ، ولكنه لا يخضع لها خضوعا مطلقاً ولا ينكمش بين تلك الأعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد . ولكن ذلك الجمود يتحرك ويحيا بما ينفخ فيه من روح ، وما ينفث فيه من سحر ، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة ، وإن كانت كلها تدور فى حدود هذه الأوضاع ، ولكل وجه سماه

ضربت المثل بجمال الجسم الانسانى ممثلا فى المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل ، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغاً منه . وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بغريزة من الغرائز ، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية ، تعقد الموضوع ، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه ، واختلفت الأذواق : فهذا ذوق جميل يصدر حكما صائباً ، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم . ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها ، فالشجر والنبات ، والنهر والشلال ، والغدير والبحر ، والمحيط والجبل ، والسماء والسحاب ، والأبنية والعمائر . لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدى الفن فى حدودها ، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود ، فكأن الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية ، بل هو فى الحقيقة غاية الثقافة والتهذيب ، وهو عند ما يقبل شيئاً أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك فى التو بغير سند واضح ، ولكن عمل الذوق فى الحقيقة نتيجة طبيعية لما وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة

وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التى تراعى فى التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا فى المستقبل ، ولكنا هنا سنبسط الشرائط التى يجب توفرها فى الصورة ، بوجه عام ، وفى الفنان أيضاً والتى يمكن بمقتضاها أن نصدر حكماً أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفن وهذه الشرائط هى كما ذكرها جون راسكن :

(١) الصدق والحقيقة (٢) البساطة
(٣) نوع من الابهام السحرى (٤) ايجاز التعبير
(٥) الجرأة (٦) السرعة

هذا ولكى يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أتم وأوفى يجب أن نجردها من النفعية وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته . فعند ما نرى نهرا جميلا يجرى بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندسى من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيدا عن تدخل يد الإنسان فى التحكم فيه والسيطرة على أجزائه — فنخفى عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسيابه الجميل — وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه بضجيجها وصريرها ، وقامت على جانبه شوهاء كالقرحة فى الجسم الغض . وننبه عنه أن هناك حطابا قويا يعمل فأسه فى جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه بابا أو نافذة . واليتبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الثرى أجمل مما لو أحطناه بسور من البناء لنحصر ماءه ، والسياج الحديدى حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها ، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس فى قفص ضيق . وهكذا فإن القلب يحس إحساسا خالصا بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفى المحض فى القلب وهو تامورة الحياة فى الجسم الإنسانى ، أجل وهو الذى يستجيب ويلبى كل شيء جميل حى

وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النبيلة لسبب ما كأن كدر صفاءه غضب أو اهتياج أو حقد أو غيرها من الحالات التى تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساسا سليما صحيحا . وكذلك الحال عند ما نرى مظهرا من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه . فالزهرة النضرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزهاء لونها ونورها وهى بذلك حية سليمة ، وهى لحياتها جميلة غاية الجمال ، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم ؛ والظبى رشيق الحركة وهو سليم صحيح ، فإذا أصيب فى ساقه يعرج فهو سقيم ثقيل ، والطير جميل وهو قوى الجناح سليمه ، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل — وكل هذه المخلوقات سعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهى بذلك جميلة غاية الجمال

ولا ينبغى أن نقرن النظر للشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث فى أن ماء النهر يكون من عنصرى الهدروجين والأوكسجين . وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية ، وأن الشجر يمتص بجذوره من الأرض عناصر التغذية . وأنه يحيل ثانى أوكسيد الكربون إلى أكسوجين نهاراً والعكس ليلا .

فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادى وبعدنا عن عالم الروح والكمال .